الرقي الادبي ام النشوء العضوي

اساس الحضارة المقبلة (١)

قال احد الباحثين في اميركا «ان العجز عن العثور على برهان يثبت ارتقاء العقل الانساني خلال زمان التاريخ، هو عندي اقنع برهان على خلق العقل البشري وعدم خضوعه لما تقوم عليه نظرية التطور من القواعد»

وقد يكون هذا الزعم مؤيداً لما يراهُ الكثيرون من الباحثين، وعلى الاخص الذين عكفوا على درس التاريخ الانساني والادب القديم. في حين ان الذين عمقوا في درس علم الجيولوجيا ومذاهب التطور الحديثة، لا يرون فيهِ الاَّ ظاهراً من القول ضعيف الاساس. اما الواقفون على حقائق علم الآثار المتحجرة — الباليتولوجيا — فيعرفون ان مذهب النشوء ليس مذهباً يحتاج الى برهان يثبتهُ، بل يؤمنون بانهُ ناموس طبيعي ثابت وانهُ حقيقة واقعة تؤيدها المشاهدات والتجربة، حتى انهم لكثرة ما يرون من اوجه تطبيقهِ على دقائق الحياة وتفاصيلها، يتعذر عليهم ان يعتقدوا بان باحثاً اكتملت في عقلهِ قوة القياس والاستنتاج، يمكن ان يشك في حقيقة هذا الناموس، الاَّ كما يشك في نواميس الطبيعيات والكيمياء

وعلى الرغم من كل هذا فاني موقن بان ذلك القول الذي فاه بهِ هذا الباحث صحيح من كل الوجوه إذا أُخذ على ظاهرهِ. اما حقيقة ما اراد ان يستدل بهِ عليهِ فلا يمكن التسليم بها. فان كل ما عرفت وقرأت من حقائق التاريخ يدلني على ان هذا القول صحيح. فلست ارى من وجه يقنعني بان القوى العاملة في الانسان قد ارتقت ارتقاء ما خلال زمان التاريخ المدوَّن. فانك اذ تقرأ محاورات افلاطون تشعر بانها قد كتبت لتستوعبها عقول فيها من الذكاء وحدة الادراك ما في عقول طلاب الفلسفة في زماننا هذا. وكذلك تجد ان قوة الادراك والفهم في عقول الذين كتبوا الاناجيل ليست باقل منها في عقول الكتاب المحدثين. ولا ريبة في ان تجمّع المعرفة ووراثتها قد ادّيا بطبيعة الحال الى تقدم كبير في معرفتنا بالحقائق والكليات العلمية والفلسفية التي نقوم عليها. ولقد كان اثر هذا التجمع ابلغ في تكوين مستحدثات المدنية وضروراتها منهُ في اي شيء آخر،

(١) ملخصة عن العلامة و. و. ماتير الباليتولوجي المعروف بمتحف التاريخ الطبيعي بالولايات المتحدة

كما كان لاختراع الطباعة وتسهيل طرق المواصلات اثر كبير في ان تمضي الحضارة نحو الارتقاء في خطوات اوسع واسرع - ولكني لا اكاد ارى دليلاً مقنعاً على ان القدرة العقلية قد ارتقت خلال زمان التاريخ - واني على يقين من ان الارتقاء في هذه الصفة ضئيل ، ان كان هناك ارتقاء على اطلاق القول

على ان للعقل الانساني نواحيَ متشعبة مختلطة . واني اعتقد بان العقل البشري قد ارتقى وتطور في نواح اخرى غير تلك التي اصدر عليها الكاتب حكمهُ . وعلى هذا يقوم كثير من الظواهر والمشاهدات . تلك هي النواحي الادبية والاخلاقية لدى مقابلتها بالناحية العقلية الصرفة [1] . هنا نستطيع ان نعثر سواء في مظاهر التفكير ام في مظاهر العمل على دلائل من الارتقاء بالغة الاثر ، وعلى تهذيب بطيء التقدم غير مفصوم الحلقات ولا مقطوع التسلسل ، وعلى الاخص اذا قابلنا بين المثُل التي تقع عليها في كتابات القدماء ، وكتابات المحدثين . واني استعمل هنا لفظ « الصفات الادبية » ليشمل كل الحقوق والواجبات والآراء والاعمال التي تؤدي الى تفضيل مصالح الافراد المستقبلة على مصالحهم الحاضرة ، او بالاحرى المستقبل على الحاضر ، والتي تسوق الى بذل المصالح الفردية الضئيلة ابتغاء الاحتفاظ بالمصالح القومية الكبيرة ، والتي تؤدي دائماً الى ارتقاء الحياة والنظم الاجتماعية

خذ اولى كل شيء النظرة الحديثة في المجرمين . فانا لا نعاقبهم اليوم على قاعدة العين بالعين والسن بالسن لان هذه المعاقبة لا تتفق والآراء الحديثة في الجريمة والعقاب ، مع اننا معتقدون بان هذه القاعدة هي التي تقوم في عقول المجرمين

ثم ارجع الى صفة الشجاعة ، وانظركم من الجبناء يمكن ان تعد بين صفوف المحاربين في حرب ما ؟ انك قلما تعثر على فرد هنا او هناك اتصف بهذه الصفة الدنيا من بين الملايين الذين يؤخذون من احضان الحضارة ليعيشوا في بيئة كل مقوماتها بعيدة عن عاداتهم وحاجاتهم المدنية ، بالغة منتهى ما نتصور من البعد عن استكمال معدات الراحة الجسمية والعقلية ، ويقون فيها معرضين لاشد آلات الحرب فتكاً شهوراً واعواماً لا بضع ساعات تقضى في موقعة قصيرة ، كما كان الواقع في الحروب القديمة . وهذا ضرب من الشجاعة

(١) ان كثيرين من الباحثين يخالفون الكاتب في هذا ويرون ان الانسان ارتقى من الناحية العقلية لدى مقابلتها بالناحية الادبية او الاخلاقية . على ان كل من قرأ كتاب الاستاذ ليكي — تاريخ الآداب الاوروبية (Hist. of the European Morals) يوافق الاستاذ مايرعلى رأيه هذا

والصبر واحتمال المشاق لم يتصف به في العصور الغابرة سوى بضعة افراد حملهم التاريخ في صدره كصور نادرة المثال . اما التراجع بغير انتظام والفوضى والهرب بعد حرب تدوم ساعة او بضع ساعات ، فكان النصيب المحتوم في الحروب القديمة لاحد الفريقين المتقاتلين . ولكنك لا تجد لهذا الجبن من مثل في عصرنا هذا . اما الروح التي قضت على هذه الصفة الخسيسة فليست قوة في الاجسام ولا خشونة في التكوين او الخلق ولا استهانة بالحياة بل هي روح البذل والتضحية ، ظاهرة او كامنة وراء ستارها ، تعمل في سبيل مثل اعلى ، لا يعود خيرهُ على اقوام دون اقوام ، بل يعمُّ خيرهُ الانسانية والحضارة ، على مقتضى ما يلوح لفريقي المتحاربين من معنى ذلك الخير وقوامه

اما صفة ضبط النفس فلها مظهران . مظهرها الخاص ومظهرها العام . والاول خاص بالفرد والاسرة . والثاني بالجماعة

كم من القواد والملوك في العصور القديمة استطاعوا ان يحافظوا على سعادتهم وهنائهم ، بالاقلاع عن الانغماس في الشهوات التي قصّرت اعمارهم وذهبت بجاه اسرهم في جيل واحد او جيلين ؟ اليس التاريخ القديم خير مرآة يرى فيها الانسان صور الافراط والاسراف بلا نظر الى الغد ، والتطرح مع ملذات الساعة من غير تفكير فيما سوف يعقبها من خسائر المستقبل ؟ قارن هذا بما تجدهُ في الاوساط العليا في العصر الحاضر من اناقة وصبر وهدًى ، وما تقع عليهِ في السياسيّ او المالي الحديث من صفات الشجاعة وضبط النفس والقدرة على كبح شهواتها . وانهُ لمن العبث ان اذهب الى ابعد من هذا في ضرب الامثال

ولكن ارجع هنيهة الى صفة ضبط النفس في مظهرها الاجتماعي . فانها صفة قد مهدت للجماعات سبيل التعاون في التجارة والسياسة . ان النجاح الذي صادفتهُ هذه الجماعات التعاونية واستمرارها رغم العوائق ، لأقوى دليل على ان هذه الصفة الادبية قد استقرت على غيرها من الصفات الدنيا في نفوس الذين يشتركون فيها ويعملون على انجاحها بكل طريق ممكن . في حين ان التاريخ القديم يرينا كثيراً من الامثال التي تدلنا الى اية درجة بلغت كفاءة القدماء في القدرة على الخضوع للنظام . وكذلك اذا قارنت ضخامة الجماعات التعاونية في العصر الحديث واتساع اعمالها بضؤولة امثالها في الاعصر القديمة وفساد نظامها ، وارتباك حياتها الداخلية ، ادركت مقدار ما حصل عليهِ الانسان اخيراً في ارتقائهِ في هذه الصفة الادبية . اقرأ تاريخ الامم الصغيرة التي عاشت في بلاد اليونان وتأمل قليلاً كيف ان قصر نظرهم وانانيتهم ، وغرورهم والظلم والقسوة ، قد حالت

بينهم و بين التعاون في العمل ، او دكّت الى الحضيض نظم الجماعات التي حاولت أن تتعاون ؟ ثم انظر كيف ان الرومان وهم ادنى في القوة العاقلة من اليونان مكانةً ، قد سادوا عليهم ، لانهم كانوا اكثر قدرة على الخضوع للنظامات الاجتماعية

ولا شك ان في مستطاع الباحث ان يمضي في ذكر الامثال من غير ان يصل الى نهاية . غير ان ما أتيت عليه هنا كافٍ للدلالة على ان تاريخ الانسان يدلنا صراحة على انهُ ارتقى وتهذب ادبياً واجتماعياً ولو عجز عن ان يرينا امثالاً يثبت بها ان العقل البشري قد ارتقى اي ارتقاء منذ بداية التاريخ

***

ان هذا اقصى ما يُنتظر ان يحدثهُ النشوء والتطور على القواعد الداروينية من آثاره فان خمسة آلاف من الاعوام ، و بدايتها هي ابعد العصور التي يمكن ان نرجع اليها في مثل هذا البحث ، عهد قصير جهد القصر ، اذا قيس بما هو معروف من قدم العصور التي مضى فيها التطور مغيّراً من صفات الاحياء ، ولا يمكن ان يكون كافياً لان يحدث النشوء خلالهُ اي أثر في نشوء الانسان نشوءاً عضوياً . كذلك قوى الانسان العقلية التي هي في الواقع نتيجة تكوينهِ العضوي ، لا بد من ان تتبع طريقاً من النشوء تدرجياً بطيئاً . فان الاخصائيين قلما يستطيعون ان يفرقوا بين جمجمة حصان منقرض عاش في العصر البليستوسيني وبين جمجمة اخلافهِ في هذا العصر . فاذا عرفنا ان ذلك العصر الجيولوجي يبلغ على قول البعض ١٠٠,٠٠٠ من السنين ، وعلى قول الثقاة في العصر الحاضر مليوناً او اكثر ، فانهُ كان من الظاهر ان اثر التطور الذي وقع في السلالات البشرية خلال خمسة آلاف من الاعوام يجب ان يكون ضئيلاً غير محسوس . ولا ريبة في ان هذه القاعدة تصدق على اية سلالة من الحيوانات الليونة التي يكون لدينا من تاريخها التطوري أصدق البقايا والآثار . وعلى هذا القياس لا ننتظر مطلقاً ان نقع على اي ارتقاء عضوي في تكوين الانسان او في قواهُ العقلية خلال زمان التاريخ . بل على الضد من ذلك ، اذا اثبتنا اي اثر ظاهر للارتقاء في عقل الانسان او تكوينهِ العضوي ، عددنا هذا الارتقاء شيئاً شاذاً خارجاً عن القياس يتطلب منا البحث والتعليل

وفضلاً عن هذا فان الصفات الادبية يمكن ان ننظر فيها نظرة الاعتقاد بانها تشارك العادات الثابتة والغرائز في نشأتها ، وانها ليست مستمدة استمداداً مباشراً من خصائص العقل الطبيعية والراجعة الى تكوين القوى العاقلة ، وانها كغيرها من العادات والغرائز

اسرع قبولاً للتهذيب من تراكيب الجسم الطبيعية وغيرها من الصفات التي تتبعها

ومن المعروف ان الانتخاب الطبيعي يعمد دائمًا الى الاحتفاظ بالتغيرات التي تكون بطبيعتها افيد للفرد او للسلالة ، ويجمعها في نسب خاصة بحيث يكون من المستطاع ان تمضي في سبيل التهذيب والارتقاء . ولا مراء في ان صفات الانسان الادبية قد نالت خلال قرون عديدة ذات فائدة في تكوينهِ اجتماعيًا ، لا تقلُّ عن فائدة التفوق العقلي او البدني في تكوينهِ فرديًا . وحيث انها اسرع قبولاً للتطور ، كان ارتقاء الانسان من ناحيتها أبين واظهر . واني كعالم بالآثار المتحجرة لا استطيع ان انظر في التاريخ الانساني نظرة مستقلة عن الاعتقاد بانهُ عبارة عن مجموع ما احدثهُ الانتخاب الطبيعي من آثار في السلالات لا في الافراد ، فنتج عن ذلك تطور اجتماعي ، لا تطور فردي . وهذا النهج الذي جرى عليهِ الشوء الاجتماعي بما كان فيهِ من التغيُّر السريع وادّى الى ما نرى من مدنيات النظام والتجانس ، كان وقفًا على النوع البشري وحدهُ . على انهُ غالب ما يتخذ الباحثون من عالم الحيوان امثالاً ينقضون بها اصل الشوء الاجتماعي في الانسان. اما استقصاء آثار هذا التطور في سلالات منقرضة فمتعذر بعيد المنال. لهذا يعتمد الباحثون على جماعات الحيوان العائشة اليوم ليستخلصوا من حالاتها ملابسات يستدلون بها على تطور العادات فيها . ومن المشاهدات والمقارنات التي اجراها الباحثون في جماعات الحيوان الحديثة يمكننا ان نحصل على عدة نتائج في مدى التطور الاجتماعي ومتجههِ ، ومن ثم نطبقها على مستقبل النوع البشري

اولاً — ان الميل الظاهر الى التناسق الارتقائي مقرون بثبات في المُثل والعادات . فاننا قد نلاحظ في اول مدارج الارتقاء الاجتماعي ، مقداراً عظيماً من التلوين والنشاط الفردي ، وتنوعًا كثيراً في اعمال الافراد تحت تأثير حالات مخصوصة . اما في الجماعات الراقية ، فان الافراد تظهر كانها تفكر وتعمل وتشعر على نمطٍ واحد ، وانها تقوم بواجباتها على نهج من التناسق الآلي . وهذا اول درجات التعاون

ثانيًا — اننا بالرغم من عثورنا على اوجه من الارتقاء الكبير في العلاقات الاجتماعية بين الحيوانات ، وعلى الاخص الحشرات ، فان تشابك حلقات الحياة الاجتماعية تظهر محدودة من اوجه عديدة تبعًا لنسبة ذكاء الافراد. فانك لا تجد بين الانواع العليا في عالم الحيوان سلالة قد بلغت من ارتقاء حياتها الاجتماعية مبلغ ما وصلت اليهِ الحشرات الاجتماعية من دقة النظام والتناسق . لا تجد مثلاً انها وصلت في تضحية الفرد لصالح الجماعة الى

الحد الذي وصلت اليه الحشرات . في حين انك تجد ان تشابك حلقات الحياة الاجتماعية بين الحيوانات العليا أرقى منهُ بين الدنيا . وتجد ان هذا التشابك قد بلغ في الجماعات الانسانية اقصى المدى

والظاهر ان النتيجة الغاية التي يرمي اليها التطور الاجتماعي هي الحصول على نظام يعمل افرادهُ في تجانس وتعاون عمل الخلايا في الجسم الحيّ جارية على طريقة آلية متقنة الضبط . اما درجة التركيب والاختلاط التي يمكن لمثل هذا النظام ان يبلغها قبل ان يصل الى ذلك التعادل المتقن التام ، فرهونة عندي على مقدار الذكاء الذي يكون في كل وحدة من الوحدات (اي الافراد) التي تكوّن ذلك النظام

فاذا صحّ هذا ، فانهُ يمكننا ان نستنتج انهُ اذا بلغت تلك الآلية الاجتماعية هذا المبلغ من الكمال ، كان ارتقاؤها بعد ذلك بطيئاً . فان الارتقاء لبلوغ هذه الدرجة يكون راجعاً الى تهذيب الصفات والغرائز الاجتماعية ، وهي سريعة التغير والنشوء ، ولكن بلوغ الدرجات التي تليها يكون راجعاً الى نشوء الصفات العضوية والعقلية العليا ، وهذه بطيئة التدرج نحو التهذيب والارتقاء

فاذا رجعنا الى التاريخ الانساني رأينا ان اوجه ذلك التغير العضوي العقلي بطيء الى درجة قصوى . واستناداً على هذا نقول بان التجه الحديث الذي يتجهُ نحوه التطور الاجتماعي هو حضارة فيها من اوجه التشابك والتعادل والتعاون اكثر مما يكون فيها من اوجه الرقي العقلي . سوف تقوم الحضارة المقبلة على الرقي الادبي لا على الرقي العضوي . وان الحضارة سوف تمضي في استئصال المجرمين والكسالى والانانيين والخارجين على قواعدها ولا مرية في ان هذا لا يمكن ان يتم في جيل واحد ، ولا في اجيال

ولا يستطيع من كان مثلي بعد ان درس علم الآثار المتحجرة واخذ ينظر في التاريخ الانساني من ناحيتهِ ان ينفك عن هذه النظرة ، او يشك في هذه النتائج في مجموعها . كما اني لا اشك مطلقاً في ان بلوغ هذه النتائج يقتضي قوة قد تحزننا حيناً ، وقد نرغب فيها حيناً آخر . قوة تقع على الذين خصوا بشيء من الضعف الخلقي وعدم القدرة على ضبط النفس وكبح جماح شهواتها ، الصفات التي تعود الى الظهور في الافراد من طريق الرجوع الى صفات اسلافهم الانسانية الاولى . وكل آت آت . وقد نستطيع ان نقرأ المستقبل اذا اردنا ولكننا لا محالة نعجز عن ان نصرفهُ عن متجههِ او نحوّلهُ عن مجراهُ

برقين اسمعيل مظهر